سوريا

دلس البرلمان.. في ذكرى التحرير



الكاتب
د. أسامة معمر

تاريخ النشر
26 نوفمبر 2026



في أحد أيام العطلة الصيفية القصيرة التي كنت أقضيها في سوريا، قبل أن أعود إلى مقاعد الدراسة في بودابست، قررت أن أخرج في جولة تصويرية أوثّق فيها بعضاً من المعالم التاريخية والأثرية لإحدى أجمل مدن العالم وأكثرها سحراً ومراقة دمشق.

حملت كاميرتي، وانطلقت أتجول بين حاراتها العتيقة وأسواقها الضاربة في أعماق التاريخ، ألتقط الصور لكل ما تقع عليه عيناي من تماثيل وأعمدة مزخرفة ونوافير تنبض بالحياة، حتى أسراب الحمام التي كانت تحلّق فوق ساحاتها لم تسلم من عدستي!

ثم عرّجت على الجامع الأموي العظيم، ذلك الصرح الذي كان في حقبة من تاريخه كنيسةً حملت اسم القديس يوحنا المعمدان، النبي يحيى عليه السلام، الذي عمّد السيد المسيح في نهر الأردن. وهناك، حيث يُنسب إليه مقام مهيب، وحيث تتعانق ذاكرة الأديان والحضارات، وقفت مأخوذاً بجمال المكان ورهبته، أتأمل روعة العمارة والزخارف، وما يختزنه هذا الصرح العظيم من حكايات الأنبياء والقديسين والفاتحين. وفي جواره، يرقد صلاح الدين الأيوبي، أحد أعظم القادة في تاريخ المنطقة.

كانت دمشق يومها تبدو لي ككتاب مفتوح على آلاف السنين، وكنت أحاول، بكاميرتي المتواضعة، أن أحتفظ ببعض صفحاته لتبقى ذكرى دافئة أخبئها لأيام الشتاء القارس في القارة العجوز.

وبعد ساعات من التجوال، قادتني قدماي إلى منطقة الصالحية، حيث ينتصب مبنى البرلمان السوري بواجهته البيضاء الأنيقة وزخارفه المعمارية المميزة.

استوقفني جمال الصبي، فرفعت كاميرتي، وبدأت ألتقط له الصور من زوايا مختلفة، غير مدرك أنني على وشك أن أتلف درساً قاسياً في معنى الخوف والإذلال، درساً سيبقى محفوراً في ذاكرتي لعقود طويلة. لم تمضِ سوى لحظات حتى تهجم نحوي أحد عناصر الحراسة، وسألني بلهجة آمرة عمّا أفعله. شرحت له، بكل براءة، أنني طالب أمرّ في الخارج، وأنني أقضي إجازتي الصيفية في هولندا، وقد خرجت منذ الصباح أصوّر معالم المدينة التاريخية، وأن صبي البرلمان ليس سوى محطة أخرى في جولتي. لكن كلماتي لم تجد إلى سمعه طريقاً. وقف بنظرة قاسية، ثم انهال عليّ بالتوبيخ والتأنيب، مؤكداً بنبرة لا تقبل النقاش أن تصوير الصبي ممنوع منعاً باتاً، وأنه لولا رأفته بحالي لاقتادني فوراً إلى أحد الفروع الأمنية، وصادر كاميرتي، وربما ما هو أكثر من ذلك!

كنت واقفاً أمامه أحاول استيعاب الموقف، وأتساءل في داخلي: أيّ جريمة ارتكبتها؟ وأيّ ضرر يمكن أن تسبّبه صورة الصبي البرلماني في وضح النهار؟ لكن ما حدث بعد ذلك كان أشد قسوة من التهديد نفسه. حيث مدّ يده إلى كاميرتي، وفتح غطاءها الخلفي، وأخرج منها شريط الفيلم. ظننت، للحظة، أنه سيصادره، وأنني قد أتمكن من استعادته لاحقاً، فقد كان يحمل هيئة يوحي كامل من المشي والتجوال والتصوير بشكل طفل يكتشف مدينته للمرة الأولى غير أن الرجل لم يكتفِ بذلك. أمسك بطرف الفيلم، وسحبه من بكرته أمام عينيّ، حتى انكشف بكامله لضوء النهار، وأتلف معه عشرات الصور التي قضيت ساعات طويلة في التقاطها.

في تلك اللحظة، شعرت وكأن جبلاً من الجليد قد سقط على صدري!

لم تكن مجرد صور ضاعت، والشريط فيلم لا تتوقف تحت أشعة الشمس.

كان شيئاً في داخلي هو الذي انتزع.

كان إحساساً عميقاً بالعجز، وبالذل، وبأنك في وطنك لا تملك الحق في أن ترفع كاميرتك لتصوّر حجراً أعجبك، أو مبنى يُعدّ، نظرياً، ليمثل الشعب الذي تنتمي إليه!

أيّ ثمر ذلك الذي عشناه؟ وأيّ هوان كانت حياتنا مضمّخة به، حتى غدا الخوف رفيقنا في الشوارع والبيوت والجامعات، وحتى أصبح المواطن يخشى ظله، ويهاب أي هدف كل كلمة يقولها، وكل خطوة يخطوها؟ غادرت المكان أجرّ أذيال الخيبة، وقد غرورقت عيناي بالهموم.

لم أبكِ على ثمن الفيلم، ولا على ساعات المشي الطويلة فحسب، بل على فرحة صغيرة افتتيت في داخلي، وعلى وطن أحببته بكل جوارحي، كنه لم يكن يسمح لي حتى بأن أحتفظ بصوره.

كانت إجازتي قصيرة، وكنت أعلم أنني لن أتمكن من تكرار تلك الجولة قبل سنوات طويلة. والحقيقة أنني لم أفعل ذلك منذ ذلك اليوم!

مضت الأيام، وتبدّلت الوجوه، وتعاقبت الفصول، لكن صورة ذلك الحارس وهو يسحب شريط الفيلم من كاميرتي بقيت حاضرة في ذاكرتي، لا بوصفها حادثة شخصية عابرة، بل باعتبارها مشهداً صغيراً يختصر مأساة وطن بأكمله. فكم من حلم أُحرق كما أُحرقت صوري؟ وكم من فرحة أُجهضت؟ وكم من شاب وفتاة غادروا وطنهم وهم يحملون في صدورهم قصصاً أشد مرارة وألماً، لم يسمع بها أحد؟ وكم من إنسان لم يخسر صورة أو كرامة فحسب، بل خسر حريته، أو أحباءه، أو حياته كلها؟

لذلك بمناسبة الذكرى الثانية للتحرير وقيام الجمهورية الثالثة شكراً للشعب السوري العظيم، الذي سطّر ملحمة استثنائية من الشجاعة والصبر والإصرار والبطولة، ملحمة ستبقى محفورة في ذاكرة التاريخ، مهما طال الزمن.

رحم الله الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم ثمناً للحرية، ورحم من قضوا في غياهب السجون والمعتقلات، وأعاد الله الغيّبين قسراً إلى أهلهم وأحبّتهم، وجبر قلوب الأمهات والآباء الذين ما زالوا ينتظرون على أبواب الغياب. وسلامٌ على العجّزين والنازحين، وعلى كل من ذاق مرارة الفقد، ولوعة التهجير، وحرقة الفراق، وقسوة الشتات.

سلامٌ على الأقدام التي أنهكها دروب الجبال والغابات في أوروبا، وعلى الأجساد التي قاومت بروحة مياه البحار، وعلى الأطفال الذين ارتجفوا في ليالي الشتاء الطويلة، وعلى الأمهات اللواتي هجرن أبناءهن وأحلامهن المكسورة، وسرن نحو المجهول بحثاً عن شيء أمان.

سلامٌ على كل من ضحى من عمره وصحته وكرامته ثمناً ليحيا حراً، أو ليمنح أبناءه فرصة لحياة أكثر إنسانية. نعلم أن الطريق أمامنا ما زال طويلاً، وأن بناء الوطن الذي نحلم به لن يكون سهلاً، ولن يسقط مقاومة الاستبداد، على عظمته، ليس سوى الخطوة الأولى في رحلة شاقة نحو بناء دولة الحرية والعدالة والكرامة والقانون.

كنا حققنا ما كان يبدو مستحيلاً.

لقد كسرنا طوق الخوف الذي كان يكبّل أرواحنا قبل أيدينا، وغسلنا عار الذل والهوان بهذه الأحرار والحرائر من أبناء سوريا، وأسقطنا منظومة الرعب والاستعباد التي جثمت على صدور السوريين لعقود طويلة.

ولعل أعظم ما أنجزناه ليس سقوط الجدران التي كانت تحاصرنا، بل سقوط تلك الجدران التي شيّدها

الخوف في داخلنا.

واليوم، كلما تذكرت ذلك الحارس الذي أحرق صوري أمام عينيّ، أدركت أن الطغيان لم يكن يخشى الكاميرا، ولا الصور، ولا حتى الكلمات.

بل كان يخشى الإنسان الحر، الذي يرى بعينيه، ويفكر بعقله، ويرفض أن ينحني.

لقد احترقت صوري يومها، لكن صورة سوريا الحرة لم تحترق في قلبي يوماً.

وها نحن اليوم نستعيد الوطن الذي حاولوا أن ينتزعوه من أرواحنا، ونستعيد معه حقنا في أن نحلم، وأن نتكلم، وأن نختلف، وأن نعيش مرفوعي الرؤوس.

فالأوطان لا تتحرر حقاً حين يسقط الطغاة فحسب، بل حين يصبح الإنسان فيها أعزّ من السلطة، وتصبح كرامته أقدس من الحاكم، وحريته حقاً لا منّةً من أحد.

المجد لسوريا الحرة، والرحمة لشهدائها، والكرامة لشعبها العظيم .

الرابط الرسمي للمقال

اقرأ المقال على الموقع

Read Article on Website

syriamorse.com/?p=22805

SCAN TO READ